خريطة القبائل العربية بين قبول النحاة ورفضهم

الحديث عن القبائل العربية يتجه أساسا إلى تلك القبائل التى شافهها العلماء فى البادية فى فترة ازدهار دراسة اللغة، وذلك بقيام العلماء من الرواة والدارسين بالرحلة للأعراب فى مواطنهم ، ثم قيام الأعراب بالوفادة على الحضر للغرض نفسه وهو أخذ اللغة عنهم ، وتلك هى الطريق التى تم بواسطتها نقل ما أخذ عن القبائل ودراسته ، وإذا شئنا التقريب الزمنى لذلك ، فإنه يقال : إن ذلك كان فى منتصف القرن الثانى الهجرى وما تلاه . أما ما قبل ذلك مما نسب للقبائل العربية من اللهجات، فهى أمور جاءت دون قصد ، إذ تناقلها الناس عفوا أو أصابها العلماء فى أشعار العرب التى صحت روايتها قبل ذلك .

وعلماء اللغة لم يرووا لغات القبائل بهدف الدراسة التاريخية للغة ، على معنى : تدوين اللهجات للوقوف على كيفية تطورها ومعرفة الصلة بين بعضها والبعض الآخر ، والصلة بين ظواهرها وظواهر الفصحى ، وكان ذلك يتم — لو حدث — بجمع اختلافات لهجات القبائل وأفرادها بالتدوين ، وتمييز أنواعها من حيث القرابة والبعد بين اللهجات ، وتتبع أسباب قرب الظواهر فى اللهجات أو بعدها ، بدراسة الصلات الاجتماعية للقبائل ، وذلك بالتتبع التاريخى لانتقالات القبائل فى الجزيرة العربية .

لكن كل ذلك — للأسف — لم يحدث ، وإن جاء شىء منه ، فقد جاء عفوا ، فإنهم قد وجهوا همهم فى تدوين اللهجات إلى ما يهمهم من تصاريف الكلام بنية وتراكيب وإعرابا ، أو إلى ما تنهض به أدلة الاختلاف بين العلماء بعضهم والبعض الآخر ، كما كان يحدث بين البصريين والكوفيين ، أو بين عالم وآخر وما يحتاج إليه ذلك من الشواهد والنوادر .